

من رئيسة دير كاثوليكية إلى راهبة أرثوذكسية

أنا بارسانافا-شكيفيتش

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

أثناء الصوم الكبير هذا العام، أدت الأخت ميلانيا النذور الرهبانية في أحد الأديرة الأرثوذكسية في شرق بولندا. ميلانيا هي راهبة كاثوليكية سابقة ومساعدة رئيسة دير كرملي. لم تكن طريقها إلى الأرثوذكسية سهلة، وكانت مليئة بالمنعطفات غير المتوقعة. وافقت على مشاركة قصتها المعقدة والمذهلة مع القراء^١

ينحدر أسلافي من غرب بولندا وكانوا كاثوليكين. كان جدي لوالدي من طبقة النبلاء البولندية، امتلكا أرضاً على نهر نيمان وهي اليوم على أراضي بيلاروسيا. جميع أقاربي الذين يعيشون الآن في مينسك هم أرثوذكسيون، وأنا سعيدة جداً لأنه لا يوجد في عائلتي كاثوليك فحسب، بل مسيحيون أرثوذكسيون أيضاً! كلما أراد أجدادنا إخفاء موضوع محادثة عن أحفادهم، كانوا يتحولون إلى اللغة الروسية. كانت عائلتنا صالحة. كنا كاثوليكين ممارسين ومشاركين في الكنيسة، لكن لم يخطر ببالي مطلقاً أنني قد أصبح راهبة. لقد أحببت الرب كثيراً، لكن لم أكن لأتخيل أنه سيرغب بإحضار شخص خاطئ مثلي إلى الدير! كنت في العشرين من عمري، وكنا نعرف كاهناً كان عالماً كتابياً، وكان ذاهباً إلى مؤتمر أكاديمي فدعاني للذهاب معه. أتيت لي الفرصة لقضاء يومين أو ثلاثة أيام في دير للصلاة، ثم العودة إلى المنزل. وافقت وكانت هذه زيارتي الأولى إلى دير. سألتني الأخوات أسئلة جدية للغاية، لكنني اعتقدت أن الأمر كان كذلك مع الجميع. في اليوم الثالث كان لي موعد مع رئيسة الدير. سألتني: "متى ستنتقلين إلينا؟". لم تسألني عما إذا كنت أرغب في الانضمام إليهم، سألت متى! فقررت أن الرب قد أظهر لي مشيئته بهذه الطريقة. ومع ذلك، قلت إنني كنت أدرس اللغات والأدب في الجامعة ولم أنه دراستي بعد، لكنهن قلن لي أن علي ترك الجامعة وأنهن سيرسلنني للدراسة في مكان آخر إذا لزم الأمر. بدا كل هذا في غاية الجدية، وعندها أجبت: "سأتي في غضون شهر".

في البيت، فزع والداي من الأخبار التي أحضرتها. ومع ذلك، ذهب إلى الدير بعد شهر وقضيت هناك عامين. كانت الأخوات غارقات بعمق في الأعمال الخيرية: يساعدن في المستشفيات والمدارس، ويسافرن إلى إفريقيا لإطعام الجوع... في نهاية السنة الثانية، باركني الأب الروحي للدير للانتقال إلى دير آخر لأكون مع جماعة مغلقة. بحسب ما قال، سيكون من المفيد لي أن أعيش في عزلة. عندما أخبرت رئيسة الدير بذلك تنهدت: "كنت خائفة من هذه المحادثة... شعرت أنك ستبعدين". وهكذا، بدافع الطاعة انتهى بي المطاف في جماعة من الراهبات الكرمليات حيث أدت النذور الرهبانية. في الوقت المناسب رُقيت إلى رتبة الرئاسة. في الدير أصبحت مساعدة رئيسة الدير، أقوم بإرشاد الأخوات الشابات. أمضيت ثمانية عشر عاماً في النظام الكرملي.

في مرة من المرات جاء إكليريكي بولندي رفيع المستوى إلى ديرنا واقترح أن ننشئ جماعة للراهبات الكرمليات في أوسولي^١ في منطقة إيركوتسك. عاشت هناك جالية بولندية كبيرة في ما مضى - وكان

١ على الأرجح أوسولي-سيبيرسكوي وهي بلدة في إيركوتسك أوبلاست، روسيا، تقع على الضفة اليسرى لنهر أنجارا (المترجم)

البولنديون، المنتقلون منهم والأحياء، بحاجة إلى صلاة إخوانهم [المسيحيين]. لم ترغب أيُّ منهن في الذهاب إلى هناك لأن راهبات هذا النظام كُنَّ يقضين حياتهن كلها (مع استثناءات نادرة) داخل جدران ديرهن - حتى إنهن لا يخرجن. كان الذهاب إلى سيبيريا يعني عدم العودة إلى بولندا أبداً. لا عجب أن أياً من الأخوات لم ترغب بمثل هذا المصير لأنفسهن. وفكرت أنه من الواضح أن عليّ أن أذهب أنا إلى هناك. أنت بحاجة إلى معرفة الأرض التي ستعيش فيها، لذلك بعد أن أخذت البركة، بدأت بدراسة التاريخ الروسي والقراءة عن الأرثوذكسية. لدى روسيا العديد من القديسين. لذلك قررت أن أصلي لهم وأطلب منهم المساعدة.

لقد أوصيتُ بدار نشر براتجيك البولندية الأرثوذكسية. بدأنا بالمراسلات، وقد ساعدوني كثيراً، إذ تلقّيت الكثير من المؤلفات والأيقونات الأرثوذكسية. رداً على أيّ سؤال كان عندي، كانوا دائماً يرسلون لي كتاباً أو كتيباً حول الموضوع. ما أدهشني هو أن كل شيء في هذه الكتب قد كُتب ببساطة وبلا تعقيد. في البداية شوشني هذا الأمر. وعندما وقفتُ للصلاة اختفت كل المسرات الفكرية من ذهني وبقيت هذه النصوص البسيطة فقط. أحببت القراءة الفلسفية: قرأت ترجمة كل من دوستويفسكي وفلورنسكي، وكان الأدب المعقد يسعدني. لكن الكتب البسيطة تجعلك مختلفاً إذ إن نَفْس الروح القدس ينفخ فيها.

كان ماريك ياكيميوك مدير منشورات براتجيك يجلب أناساً روسيين إلى ديرنا. في إحدى المرات، أتى معه الأرشمندريت أمبروسيوس ياروسوف من مدينة إيفانوفو الروسية، وبرفقته راهبات من دير أرثوذكسي. تحدثنا من خلف القضبان. سألتنا الاب أمبروسيوس: "أيتها الأخوات، هل تغضبن يوماً من بعضكن البعض؟" وناقشنا هوى الغضب لفترة طويلة. مُستخدماً أمثلة بسيطة، شرح لنا الشيخ كيف نتعامل مع الأهواء ونحب إخوتنا. دخلت كلماته مباشرة إلى قلوبنا. كانت أخواتنا جالسات يبكين، فقد كان الروح القدس حاضراً بقوة في عظاته. لقد كان جمالاً غير أرضي! كنت سعيدة لرؤية الدموع في عيون الأخوات.

أثناء قراءة الأدب الأرثوذكسي، سألت نفسي سؤالاً كنت أرغب حقاً بإيجاد إجابة له. كتبت رسالة إلى ماريك: "إنني أقرأ الشيوخ القدامى وشيخنا المعاصر باييسوس الأثوسي في الوقت ذاته. قرونٌ تفصل بينهم، لكنني لا أشعر بأي فرق بينهم! لماذا؟" كان جواب ماريك هو الخطوة الأولى نحو الأرثوذكسية بالنسبة لي. كتب: "الكنيسة الأرثوذكسية هي استمرار التقليد الأبائي. الجميع أحياء في الكنيسة الأرثوذكسية!" ثم سألتُ أب اعترافي الكاثوليكي: "ماذا عننا؟ لماذا الشيوخ هم تاريخٌ بالنسبة لنا وليسوا واقعاً؟" أجاب أننا نعيش في عالم جديد. فقلتُ جدلاً "ولكن، كُتب الإنجيل منذ ألفي عام، فهل يعني ذلك أنه قد عفا عليه الزمن؟". لم يعرف أحد كيف يجيبني. ثم ابتدأ الكثير من الأشخاص المُقربين مني يبتعدون عني وفقدت العديد من الأصدقاء. كان الأمر مؤلماً.

في تلك الفترة، شددني الأب أمبروسيوس والراهبة ماريا من القدس. جاءت مرة المغنية الروسية الأرثوذكسية زانا بيشيفسكايا إلى بولندا لتقيم حفلات موسيقية؛ نظم ماريك ياكيميوك جولاتها. كنت أعرف أغانيها وأحببتها، فطلبْتُ من ماريك أن يبلغها تحياتي. لسبب ما، أساء فهمي واعتقد أنني أدعو زانا لزيارتنا؛ بعد فترة تلقيت مكالمة من مديرة أعمالها. لم أكن أتخيل أن مثل هذه المغنية قد تأتي إلى ديرنا! بالنسبة لنا نحن

البولنديين، فلاديمير فيزوتسكي وبولات أو كيدزاييفا وبشيفسكايا هم روسيا متجسدةً في الأغاني. اتضح أن المديرية كانت تذهب إلى المدرسة مع والدتي، وكانت والدتي تساعدنا مع أخيها المريض. قلت إن والدتي ماتت، واستاءت المديرية للغاية. فقررت "سوف نأتي إلى ديرك".

صرنا أنا وزانا صديقتين حميمتين على الفور وما زلنا كذلك إلى اليوم. إن الشعب الروسي لطيف جداً! أشعر بهم بشدة، كالأُسرة. أغاني زانا مليئة بمثل هذا الشعور، مثل هذا الحب لروسيا! ليست زانا مغنية علمانية، إنها شخص متدين للغاية - تألقت أغانيها بالأرثوذكسية بالنسبة لي. لقد تأثرت كثيراً بالاجتماعات مع مختلف الروس، حيث أعطيت لي عطايا من الله.

كانت السنة الأخيرة في الدير الكرمليني صعبة للغاية بالنسبة لي. استطعت أن أفهم الأخوات: لم يردني أن أدّمّر. بالطبع، بدا غريباً بالنسبة لهنّ أن رئيسة بولندية أرادت التحول إلى الأرثوذكسية والمغادرة إلى روسيا (في أذهاننا، الأرثوذكسية مساوية لروسيا). في تموز ٢٠١٠، نشأ وضع صعب في الدير بين الرئيسة والراهبات، حتى أن السلطات الكنسية قد حضرت. ساعدتهم في حل المشكلة وانتهى كل شيء على ما يرام. أرادت الرئيسة الأم أن أنال فترة راحة. على الرغم من أنه لا يُسمح للكرمليين بالخروج أبداً من أديارهم، فقد شُح لي بالذهاب ليوم واحد إلى دير آخر وتكريم مزاراته. قررت أن أذهب إلى دير أرثوذكسي. أردت حقاً حضور قداس أرثوذكسي لأول مرة في حياتي! لم أفصح عن هذا للدير إذ كنت أخشى أن تمنعني الرئيسة فأصير مضطراً للطاعة. "سأخبرك أين كنت عندما أعود"، قلت بتراوغ. فهمت إلى أين كنت ذاهبة، لكنها بقيت صامتة.

وافق ماريك ياكيمويك على مقابلي في المحطة وأخذني إلى كنيسة القديس نيكولاس في بيالستوك. بمجرد دخولي إلى الكنيسة، بدأت الدموع تنهمر من عيني. في تلك اللحظة، أصبح من الواضح تماماً أن الأرثوذكسية هي طريقي. بعد بيالستوك، سافرنا إلى دير ميلاد والدة الإله في زويركي. كان الثاني عشر من تموز، عيد القديسين بطرس وبولس (٢٩ حزيران بحسب التقويم اليولياني: المترجم). بعد سنوات عديدة علمت أن القديس باييسوس الأثوسي، قديسي الأرثوذكسي المفضل، عيدته في نفس اليوم! كنت قد قرأت كل كتبه التي استطعت أن أجدها، واعتبرته في أعماقي أب اعترافي. تحدثنا مع رئيسة الدير، وسألته قبل أن أغادر: "متى تعودين إلينا مرة أخرى؟" كان الأمر كما لو أن صوت الله قد دوى. ذات مرة في شبابي في دير كاثوليكي سألوني بنفس الطريقة: "متى ستأتين إلينا؟" إذاً، الآن أعلن الرب مشيئته. علمت أنني لست بحاجة للبحث عن دير. لقد أعطانيه الرب بالفعل.

بعد عودتي إلى الدير الكرمليني، قابلتني الأخوات على نحو عدائي. لم تستطع الأم الرئيسة مقاومة إخبارهن بالمكان الذي ذهبت إليه. احتجّزت في زنزانة لعدة أشهر... لم يكن من عزاء لي سوى عدد قليل من الأخوات الصغيرات اللاتي سبق لي أن علمتهن. في كانون الأول، تم إرسالني إلى عيادة الطب النفسي التابعة للجماعة الكاثوليكية. توقعت الأخوات الكرمليات أنهم سيعطونني شهادة عجز عقلي. استغرقت الفحوصات أربعة أشهر، وأخذتني إلى كاهن مكّرس لطرده الأرواح الشريرة وكان يحزر الأشخاص الممسوسين من الشياطين. عندما كنا وحدنا في مكتبه، سألتني الكاهن: "لماذا أتت أختي إلي؟"

أجبتة: "جاء بي إليك لتحررنني من مسّ شيطاني".
 "أيتها الأخت. أنا أصلي من أجلك، لكنك لست ممسوسة من روح شرير. ماذا تريد الأخت غير ذلك؟"
 انفجرت بالبكاء واعترفت: "إنهم يريدون منك أن تطرد روح الأرثوذكسية مني".
 كان الكاهن صامتاً، مكتفياً بصلاة المسبحة. وبعد مرور بعض الوقت قال: "لقد أتت الأخت إلى العنوان الخطأ.
 لقد أنهيت رسالتي في الدكتوراه عن صلاة يسوع. وفي قلايتي أنا أنهى رسم أيقونة المخلص 'غير المصنوعة
 بيد'، كما أنني ذهبت إلى دير بوكاييف لأدرس خبرة الرهبان الأرثوذكس في طرد الشياطين".
 انتهى حديثنا بأن أعطاني الكاهن البركة لاعتناق الأرثوذكسية. اعتبرتها معجزة من الله.
 لقد نشأت صداقة بيني وبين طاقم المستشفى الكاثوليكي، بل وأحببنا بعضنا البعض. أبلغوا الراهبات
 الكرمليات بأنني عاقلة وما من سبب لإبقائي في عيادة الطب النفسي؛ وأنني قد خضت لكل الفحوصات
 الممكنة، وأن التصريح بأنني مجنونة سيكون كذباً، وهم لن يأخذوا مثل هذه الخطيئة على أنفسهم. جاء الكهنة
 والراهبات الكرمليون إلى المستشفى وحاولوا إقناعي بتغيير رأيي وعدم التحول إلى الأرثوذكسية. كل يوم
 كانت هناك لقاءات ومحادثات، لكنني كررت أنني لن أعود إلى الدير. كان الأمر صعباً جداً، لكنني طلبت من الرب
 أن يمنحني القوة لساعة، لدقيقة... وقد ساعدني الرب على الصمود. أخيراً، جاء والدي وشقيقي وأخذوني إلى
 المنزل.

بعد أن مكثت في المنزل للراحة لمدة أسبوع، غادرت في الرابع من أيار إلى الدير في زويركي. كنت أعلم أن
 زانا بيشفيسكايا، التي أحببتها، تكرم القيصر الشهيد نيكولاس الثاني. في البداية، كان موقفي منه معقداً، لكنني
 طلبت شفاعته القيصر. في ١٦ تموز، صرت أرثوذكسية، وكانت أول مناولة لي في ١٧ منه- عيد شهداء العائلة
 الملكية! عندما علمت بهذا أصابني الدهشة. لسنوات بقيت مبتدئة في الدير، ثم راهبة لابسة جبة، ثم صرت
 راهبة في الصوم الكبير لعام ٢٠٢٢. كان طريقي شائكاً وصعباً، لكنني متأكدة من أن الله نفسه قد أرشدني. اليوم
 أصلي من أجل المحبة بين روسيا وبولندا. إن الشيطان يبذر العداوة بيننا، لكنني أؤمن أن الرب سيساعدنا في
 التغلب عليها!

† Anna Berseneva-Shankevich. "The Sisters Want You to Expel the Spirit of Orthodoxy from Me",
 How a Catholic abbess became an Orthodox nun. Translation by Dmitry Lapa. 11/2/2022.
 Pravoslavie.ru. <https://orthochristian.com/149020.html>